

الفينيقيون في جزيرة الصويرة

محمد رضوان العزيفي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

فاس

مما لا شك فيه أن كل مهتم بتاريخ المغرب يعلم أن الفينيقيين⁽¹⁾ وفدوا على سواحله، وأنهم جاءوا من لبنان البعيدة على ظهر سفنهم للقيام بالتجارة مع سكانه. لكن أن نتصور أن هذا الشعب قد وصل إلى حدود مدينة الصويرة⁽²⁾ التي تبعد عن مضيق جبل طارق بحوالي 700 كلم، فلا محالة أن ذلك سوف يثير الكثير من التساؤلات.

نعم، إن الفينيقيين استطاعوا أن يقدوا على جزيرة الصويرة⁽³⁾، وأن يستقروا بها، وأن يتركوا هناك آثارا دالة على علاقتهم التجارية بأهل المنطقة. كيف كان ذلك ؟ هذا ما سأحاول توضيحه في هذه المداخلة.

(1) الفينيقيون «شعب سامي» كان يقطن الشريط الساحلي الذي يشمل حاليا كل لبنان وجزءا من سوريا وفلسطين. وهي المنطقة التي كانت تنحصر قديما بين مركز «تل سوقاس» بسوريا شمالا، وبين «عكا» بفلسطين جنوبا.

(2) ألا يمكن أن نرى في كلمة الصويرة تصغيرا لكلمة صور أهم مدينة فينيقية، وبالتالي فإن التسمية عرفت المدينة منذ العهد الفينيقي لما قدم إليها البحارة الصوريون، فأطلقوا على الجزيرة وربما على المدينة اسم الصويرة أي صور الصغيرة ؟ إن مدينة صور اللبنانية التي لم يتغير اسمها منذ أقدم العصور تعني باللغة الفينيقية «الصخور». فهل أطلق الفينيقيون على جزيرة الصويرة كلمة «صخرة» لما شاهدوا بالقرب منها عدة جزر صخرية أو صخور، فتحوّلت «الصخرة» إلى الصويرة كما تحوّلت الصخور إلى صور ؟

إنه مجرد تساؤل قابل للنقاش والطعن، علما بأن الخوض في مثل هذه المواضيع ليس أمرا هينا نظرا لتشعب الاشكاليات اللغوية والطوبونيمية والفيلولوجية والايتمولوجية التي تطرحها.

(3) كان البحارة الفينيقيون يحبون الاستقرار في المرتفعات البرية المطلة على الشواطئ، لكنهم كانوا يفضلون عنها الجزر الصغيرة التي كانت تؤمنهم أكثر.

إن الاهتمامات الأركيولوجية الأولى بجزيرة الصويرة كمركز أثري بدأت في عام 1950، عندما قام مدرسان فرنسيان من مدينة الصويرة وهما «ديجاك» (J. Desjaques) و«كوربرلي» (P. Koeberlé) ⁽⁴⁾ باستكشافات سطحية بعين المكان ⁽⁵⁾، فاستطاعا بفضلها أن يعثرا على بعض اللقى الأثرية ⁽⁶⁾. وفي سنة 1951 شرع الباحثان في القيام باستبارات في العمق ⁽⁷⁾ حيث تمكنا من العثور لأول مرة على مراد ما قبل رومانية، مع الاعتقاد بالأصول الفينيقية لبعضها ⁽⁸⁾.

هذا الاعتقاد الذي سيصبح صائبا فيما بعد حثَّ المهتمين بمصلحة الآثار بالمغرب على المنادات على عالم البونيقيات «بيير سانتاس» (P. Cintas) ⁽⁹⁾، الذي التحق بالجزيرة عام 1952. فبدأ بالحفر ⁽¹⁰⁾ إلى أن وصل إلى ستة أمتار بحثا عن المقابر البونيكية ⁽¹¹⁾ التي لم يعثر عليها ⁽¹²⁾.

(4) كانا يدرسان في ثانوية «سيلكس طايي» (Silex Taillé) بمدينة الصويرة.

(5) مما سهل مأمورية البحث الأركيولوجي في جزيرة الصويرة أن هذه الجزيرة لم تعرف نفس التطور العمراني الذي عرفته مدينة الصويرة.

(6) أنها عبارة عن لقى ما قبل تاريخية وبعض النقود الرومانية ونقود أخرى ترجع إلى عهد «يوبال الثاني»، علاوة على العديد من الكسرات الخزفية.

(7) كانت المنطقة التي قاما بتنقيتها تعتبر إذاك أكثر مناطق الجزيرة وفرة باللقى القديمة، فحفرا فيها إلى حدود مترين ونصف متر.

(8) قاما بنشر أعمالهما في مجلة «هيسرس» انظر :

- P. Koeberlé et J. Desjaques, Mogador et les îles purpuraires, Hespéris, T. XL II, 1955, pp. 193-202.

(9) كان من المتخصصين المرموقين في علم الآثار البونيكية أي القرطاجي، إذ سبق له قبل أن يلتحق بجزيرة الصويرة أن قام بعدة تنقيبات أركيولوجية في قرطاجة.

(10) بدأ تحرياته في نفس المنطقة التي كانت مجالا لأعمال المدرسين الفرنسيين، وهي منطقة رملية تبعد في اتجاه الشمال بمائة متر عن الصومعة الموجودة حاليا بالجزيرة.

(11) من المعلوم أن المقابر البونيكية — كالمقابر الفينيقية — توجد عادة مبنية ومطمورة تحت التراب — لتحديد تقنية وطريقة بناء المدافن الفينيقية، انظر : محمد رضوان العزفي، الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان «من خلال مقابر ناحية طنجة ومحتوياتها المؤرخة ما بين القرن السابع قبل الميلاد وأواسط القرن السادس قبل الميلاد». رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم، يونيو 1988، مكتبة كلية الآداب بفاس، الجزء الأول، ص 44 — 52.

(12) على عكس العديد من المراكز الفينيقية لم يخلف مركز جزيرة الصويرة الأثري أي دليل عن وجود مدافن الأموات، مما يثير الكثير من التساؤلات عن هذه الظاهرة. فهل كان التجار الفينيقيون يقومون بدفن موتاهم في مكان آخر دون الجزيرة، أم أن هذه الظاهرة تفسر بطبيعة استقرارهم الموسمي كما =

خيبة الأمل هذه دفعت به إلى تحويل اهتمامه إلى دراسة الكسرات الخزفية التي اكتشفها، فاعتقدتها شبيهة بالكسرات المكتشفة في قرطاجة وبالتالي اعتبرها بونيقية⁽¹³⁾.

وفي عام 1956 التحق «أندري جودان» (A. Jodin) بالجزيرة للقيام بأهم الأعمال الأثرية⁽¹⁴⁾. فبعد أن ركز استباراته في تل أثري تبلغ مساحته ربع هكتار⁽¹⁵⁾، توصل إلى أن أقدم طبقة أثرية والتي تحمل رقم IV لم تكن بونيقية = سنرى ؟ لا نستطيع أن نجزم في هذه القضية لأن الأبحاث الأركيولوجية لم تشمل سوى جزءا صغيرا من المركز.

ومهما يكن من أمر، فإن الحوض الوحيد الذي اكتشفه «سانتاس» واعتقده ناروسا بونيقيا لم يكن سوى مطمورة رومانية شبيهة بأحواض «الكاروم» (نقيع السمك) المكتشفة في مدينتي «كوطا» و«ليكسوس».

(13) قبل الالتحاق بمدينة الصويرة كان «سانتاس» قد ألف كتابا هاما اعتبر إذاك من المراجع الأساسية في تصنيف الخزف القرطاجي. انظر :

- P. Cintas, Céramique Punique, Tunis, Publications de l'Institut des hautes études Tunisiennes, 1950.

(14) توجد جميع التفاصيل عن أعمال «أندري جودان» الأثرية بحثا عن الخلفات الفينيقية في جزيرة الصويرة في المنشورات التالية :

- A. Jodin, Nouvelles recherches archéologiques à Mogador, Comptes rendus des séances mensuelles de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, Séance du 20 Mars 1957, Hespéris, T X LIV, pp, 362-363.

- A. Jodin, Notes sur les fouilles exécutées à Mogador en Mai et Juin 1956, B.C.T.H., 1957 (1959), pp. 118-126.

- A. Jodin, Note préliminaire sur l'établissement préromain de Mogador, Campagnes 1956-1957, Bulletin D'Archéologie marocaine, T II, 1957, pp. 9 - 40.

- A. Jodin, Mogador, Comptoir phénicien du Maroc atlantique, Etudes et Travaux d'Archéologie marocaine, vol. II, Tanger 1966, 211 pp.

- A. Jodin, Les Phéniciens à Mogador, Les Dossiers d'Histoire et Archéologie, n°132 : Les Phéniciens à la conquête de la Méditerranée, Novembre 1988, pp. 88-91.

(15) كثيرة هي المراكز الأثرية في المغرب على شكل تل أثري، نذكر منها على سبيل المقارنة مركز «سيدي عبد السلام البحر» الفينيقي بناحية تطوان. فخلال عهد المخطط الفينيقية الأولى، كان مرتفع «سيدي عبد السلام» أكثر انخفاضاً مما هو عليه الآن، وبعد ذلك ازداد ارتفاعاً نظراً لتراكم الفضلات والبنائيات طوال الزمن. انظر :

— محمد رضوان العزيفي التعمير القديم لوادى مرتيل، ندوة «جبال الريف: المجال والإنسان» أيام 3، 4، 5 أبريل 1989، كلية الآداب بتطوان (تحت الطبع)، غير أن تل جزيرة الصويرة الأثرية كان شبيهاً لحد ما بتلك الأكوام الاصطناعية التي يميز بها ما قبل التاريخ آثار الإنسان البدائي المعروفة بكلية «كجوك كنمودين» (Kjok Kenmodding) أو «شلموند» (Shellmound). ففي هذه الجزيرة كان الفينيقيون وكأنهم يعيشون فوق فضلاتهم، بل فوق أزيالهم إن صح القول، دون أن يفكروا في رمي فضلات مأكولاتهم المكونة من المحار ومن لحم البقر في البحر الذي يبعد عن التل إلا بعشرين متراً.

كما اعتقد «سانتاس» بل فينيقية⁽¹⁶⁾.

فما هي المخلفات الأركيولوجية التي تركها الفينيقيون في هذه الطبقة ؟ يمكن تقسيمها إلى نوعين كبيرين :

— النوع الأول تمثله مآت الكسرات الخزفية المختلفة الأشكال والمصدر، وقد نقشت في بعضها كتابات فينيقية.

— أما النوع الثاني فتمثله بعض العلامات والشواهد الدالة على الاستقرار الفينيقي بالجزيرة.

— ففيما يخص الخزف نلاحظ باندهاش كبير أنه يمثل أهم مادة أثرية، إذ استطعت أن أحصي 1200 كسرة يمكن تقسيمها إلى مجموعتين مختلفتين :

— المجموعة الأولى — وهي قليلة جدا — يمثلها الخزف الاغريقي بحوالي 24 كسرة⁽¹⁷⁾، وقد لعب دورا كرونولوجيا أساسيا في تاريخ المركز كما سنرى.

(16) من خلال الاستبارات التي قام بها «جودان» في تل جزيرة الصويرة ما بين عام 1956 و 1958 استطاع أن يعرف على ثلاث طبقات أركيولوجية (رقم I و III و VI) وعلى طبقتين جيولوجيتين (رقم I و V). انظر :

- A. Jodin, Mogador, Comptoir Phénicien..., op.cit, chapitre II: La stratigraphie, 5. Les Coupes stratigraphiques et l'étude du processus de formation, pp. 31-40.

فإليه يرجع الفضل في اعتبار أن معثورات المستوى الأركيولوجي رقم IV من أوان خزفية وغيرها هي من مخلفات الفينيقيين الشرقيين، وليست من مخلفات بونيفي قرطاجة الذين لم يردوا إلا نادرا على الجزيرة بعد أجدادهم الفينيقيين بقرون عديدة. كما أثبت «جودان» أن التوافد السكاني لم ينقطع من الولوج إلى الجزيرة، كما تشهد على ذلك مخلفات عهد «يوبيا الثاني» وبعض مباني الرومان ومسكوكاتهم وبعض القطع التي منها من يؤرخ بالقرى الرابع الميلادي.

(17) أهم ظاهرة أثارها مخلفات جزيرة الصويرة الأثرية هي العثور لأول مرة في المغرب على كسرات من الخزف الإغريقي العتيق، مما استدعى إذاك مناداة أحد المتخصصين لدراسته. انظر :

- F. Villard, Céramique grecque du Maroc, Bulletin d'Archéologie marocaine, T. IV, 1960, pp. 1 - 26.

ويتكون الخزف الاغريقي المكتشف في جزيرة الصويرة من نوعين مختلفين : الامفورات الايونية بما جمعد عن أربع كسرات تعود إلى نوع واحد مصدره بلاد أيونيا بآسيا الصغرى.

— الامفورات الاتيكية بحوالي عشرين شقفة من أصل ثمان أوان مختلفة، مصدرها من أثينا، انظر :

- A. Jodin, Mogador, Comptoir Phénicien..., op.cit, chapitre II: La céramique grecque, pp. 53-64 ; PL. XVII, XVIII, XIX ; fig. 12 et 13.

فهل العثور على الخزف الاغريقي في أبعد نقطة كانت تعرف في العالم القديم يدل على وصول الإغريق =

— أما المجموعة الثانية فيمثلها الخزف الفينيقي بنسبة 95% ويمكن تقسيمها لأجل التبسيط إلى ثلاثة أنواع كبرى.

* النوع الأول يمثله الخزف الفينيقي ذو البرنيق الأحمر⁽¹⁸⁾ بما يعادل 500 كسرة من أصل ثمانية أشكال من الأواني المختلفة⁽¹⁹⁾.

= أنفسهم إلى ناحية الصورة ؟ إنه الاعتقاد الذي خالغ العديد من المؤرخين الأجانب المبالغين في مكانة التوسع الهليني في البحر الأبيض المتوسط، مما زادهم تكريسا لايدولوجيتهم المعادية إذاك للسامية. غير أن التطور السريع الذي عرفته الأركيولوجية الفينيقية في السبعينات والثمانينات ساهم في رد الاعتبار للدور الحقيقي الذي لعبه الفينيقيون الساميون في الحوض المتوسطي. فأظهرت جل المكتشفات الأثرية أن التلاسرراطية الفينيقية كانت هي المهيمنة على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وعلى مدخل مضيق جبل طارق وعلى الساحل الأطلسي المغربي والليبري. فالخزف الإغريقي المكتشف بجزيرة الصورة بأعداد قليلة — إذ لم تمثل نسبته بالمقارنة مع الخزف الفينيقي سوى خمسة بالمائة — لم يصل إلى المنطقة بواسطة الإغريق، بل بفضل التجار الفينيقيين الذين قاموا بمقايضته من عند الإغريق أنفسهم. ولا ينبغي أن نستغرب من ذلك، لأن الفينيقيين لم يقتصرُوا على الاتجار بالمواد المصنوعة خصيصا في فينيقيا، بل كانوا يقومون أيضا بتوزيع منتجات بعض الشعوب المتوسطية الأخرى. فعند عبورهم مصر مثلا، كانوا يقومون بنقل القمح المصري ويوزعونهُ على بلاد الإغريق التي كانت تعرف نقصا في هذه المادة. ومن بلاد الإغريق كانوا ينقلون الخزف الآتيكي ليتقايضون به في سواحل إفريقيا الشمالية، التي يأخذون منها بيض النعام ويصدرونه إلى أوروبا.

إن ما يهمننا من اكتشاف الخزف الإغريقي في جزيرة الصورة — ولم يكن اكتشافا فريدا من نوعه في المغرب إذ عثر على خزف مماثل في «ليكسوس» إنه خزف من النوع الرفيع. أي أنه كان يلعب نفس الدور تقريبا الذي لعبه وما يزال يلعبه الخزف الفيني المعروف لدى المغاربة حاليا باسم «الطاووس».

(18) انظر جل المعلومات المرتبطة بهذا النوع الخزفي من حيث طريقة صناعة العجين وصبغة البونيق، ومن حيث الدراسات الخاصة بهذا النوع عند : محمد رضوان العزيفي، «الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقاتهم بالسكان، المرجع السابق، الفصل الثالث من الباب الثاني: الخزف الفينيقي والخزف المحلي ذو التأثير الفينيقي، الجزء الأول، ص 230 — 232.

(19) وصلت إلى جزيرة الصورة حوالي كل الأشكال التي صنعها الفينيقيون من الخزف المعروف ذي البرنيق الأحمر، وهي الأشكال التالية :

1 — الصحون (Les plats) وهي نوعان :

— الصحون ذات الشفة العادية (Les plats à lèvre simple): وقد عثر على أعداد كثيرة منها دون أن يتم الكشف على أي إناء كامل.

— الصحون ذات الشفة المجددة (Les plats à lèvre cannelée): وقد عثر على أعداد كثيرة جدا من كسراتها تحتوي في أسفلها على خربشات تحمل أسماء صانعيها.

2 — الياتير (Les patères) وهي نوعان أيضا :

— الياتير ذات الحاشية المستقيمة (Les patères à bord droit) بما مجموعة 21 نموذجا في حالة كسر =

* أما النوع الثاني فهو نوع خزفي غير مصبوغ بقي منه حوالي 400 كسرة من أصل ستة أنواع مختلفة⁽²⁰⁾.

* والنوع الفينيقي الثالث يمثل الخزف المصبوغ المتعدد الألوان بحوالي 272 كسرة⁽²¹⁾.

= — الياتير القارية الشكل المكثفة الحاشية (Les patères carennées à bord eurlé) بما مجموعة 29 نموذجاً في حالة كسر.

3 — الطسوت (Les phiales) بما مجموعة 17 نموذجاً في حالة كسر، والجرنات (Les vasques) بما مجموعه 18 نموذجاً منكسراً.

4 — الجرار ذات الكتف البارزة (Les vases à épaulement): وقد عثر على عشر قطع عنق من هذا النوع وعلى 12 شقفة من حاشية الآنية.

5 — القناديل ذات المشعلين (Les lampes à deux becs) بما مجموعه حوالي 300 نموذج منكسر (انظر لوحة I رقم 2).

6 — المبخرات (Les brûles parfums)، حيث عثر على نموذجين شبه كاملين، علاوة على بعض القطع الأخرى.

7 — الأباريق ذات القرص (Les oenochos à bobèche) بخمسة نماذج منكسرة.

8 — «الأواني الصغيرة» (Petits vases à couvercle rouge)، وهي نوعان:

— الكأس الصغيرة (La coupelle)، وقد عثر على نموذج واحد كامل من هذا النوع — الكأس ذو الأرجل الثلاثة (La coupelle à Trépied) بنموذج واحد كامل أيضاً. للتعرف أكثر على شكل هذه الأواني أحجامها ومقارنتها بنماذج مماثلة اكتشفت في العديد من المراكز الفينيقية الأخرى، انظر:

- A. Jodin, Mogador, Comptoir Phénicien..., op.cit, chapitre IV: la céramique rouge de Mogador, pp. 77-121; PL. XXI à XXX; fig. 15 à 24.

(20) خلفت معثورات جزيرة الصويرة أهم الأنواع الخاصة بالخزف الغير المصبوغ الفينيقي (Céramique achrome)، وهي الأنواع التالية:

— الأمفورات (Les amphores) حيث عثر على حوالي 300 عروة من هذا النوع من أصل حوالي 170 نموذجاً.

— الصحون ذات الأرجل الثلاث (Les trépieds)، حيث عثر على الأقل على 25 نموذجاً منكسراً.

— القنينات (Les ampoules) بحوالي عشرين نموذجاً منكسراً.

— الناقل (Le pichet) أو الأولبي (L'olpé)، حيث عثر على الأقل على 34 نموذجاً منكسراً.

— الأباريق الأجاصية الشكل (Les oenochvés périformes)، لم تكتشف من هذا النوع سوى بعض العروات والشفات القليلة.

— الصحون الرمادية (Les plats de céramique grise) حيث عثر على عشر قطع من هذا النوع. انظر بعض المعلومات الأخرى المتعلقة باستعمالات هذه الأنواع وبأوصافها عند:

- A. Jodin, Mogador, Comptoir Phénicien..., op.cit, chapitre V: La céramique phénico-chypriote à parois mates, pp. 123-117; PL. XXXII à XXXVIII; fig. 25 à 30.

(21) على العموم تميز الأواني المصنوعة من هذا النوع بشكلها شبه الكروي وبقاعدتها المسطحة الغير البارزة. كما تميزت بتوفرها على عرويتين من كل جهة العنق وعلى حاشية تحتوي على شفة بارزة بعض =

فإذا كان العثور على هذه الأنواع الثلاثة كافياً لاعتقادنا بوصول الفينيقيين إلى جزيرة الصويرة، فإن ما يزيدنا تأكيداً على ذلك هو اجتواء 125 كسرة من هذه الكسرات على كتابات فينيقية⁽²²⁾. وهي عبارة عن خربشات كتبت على إحدى أطراف الأنية قبل شوائها بأبجدية صورية أو صيدونية⁽²³⁾، لا تتعدى بعض الأسماء عادة على شكل فلان ابن فلان.

= الشيء. أما فيما يخص أحجامها فهي تعد من الأواني ذات الحجم الكبير، إذ يتراوح ارتفاعها عادة ما بين 300م و400م.

ولعل أهم ميزة لها هي الزخرفة، حيث كانت الأنية تصبغ جزئياً أو كلياً إما بخطوط أفقية رقيقة أو غليظة وإما بدوائر متراكزة. أما الألوان المستعملة فهي كثيرة أهمها الأسمر والأحمر والأسود والأبيض والأرجواني. انظر أهم المعلومات المرتبطة بهذا النوع الخزفي المكتشف في العديد من المراكز الفينيقية بالمغرب وبالبلدان المتوسطة الأخرى عند :

— محمد رضوان العزيفي، الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان المرجع السابق الجزء الأول، ص 245 — 252.

أما الخزف المصبوغ الفينيقي المكتشف بجزيرة الصويرة، فينقسم إلى نوعين من الأواني : أولاً : الخزف المصبوغ ذو الخطوط الأفقية (Céramique polydrome à bandes linéaires) : ينقسم بدوره إلى شكلين مختلفين:

— الجرار ذات العنق الضيقة (Vases à col étroit) : وقد اكتشفت جرة شبه كاملة من هذا النوع لا تنقصها سوى العنق، علاوة على 39 شظية أعناق و119 كسرة مختلفة. أما ألوان الخطوط المستعملة في هذا النوع فهي الأسود والأحمر والأسمر.

— الجرار ذات العنق الواسعة (Vases à col large) : وقد تم العثور على 15 عروة من هذا النوع إلى جانب 92 قطعة أخرى. وكانت ألوان الخطوط المستعملة تتألف من الأسود والأبيض والأحمر والأرجواني.

ثانياً : الخزف المصبوغ ذو الدوائر المتراكزة (Céramique polychrome à décor circulaire concentrique) وقد اكتشفت سبعة كؤوس من هذا النوع إلى جانب عدة لقي من بقايا الجرار، انظر :

- A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit, chapitre VI: la céramique peinte de tradition ionienne, pp. 149-166; PL. XXXIX à XLV; fig. 31 à 33.

(22) وجدت هذه الكتابات بالخصوص في النوع الأول من الخزف المعروف بذي البرنيق الأحمر. انظر هامش رقم 19.

(23) لا ينكر أحد فضل الفينيقيين على البشرية جمعاء في اكتشاف الحروف الأبجدية ومساهماتهم في انتشارها لدى جل شعوب البحر الأبيض المتوسط رغم أنهم لم يتركوا وثائق كتابية كثيرة بالمقارنة مع ما خلفه معاصروهم الإغريق، ومع ذلك فإنهم تركوا بعض الدلائل المكتوبة كانت أهمها الكتابات الجنائزية التي اكتشفت مدونة فوق أنصاب القبور — وهي تحمل أسماء الدفناء مصحوبة ببعض التراويل الدينية — إلى جانب كتابات مدونة على الأواني الخزفية.

هذا النوع من الكتابات المعروف بالخربشات الفينيقية (Graffiti phéniciens) — الذي قل ما وجه في الاقطار المتوسطية، عثر عليه بكثرة في جزيرة الصويرة. وكان أول من اكتشفها الأستاذ «كوبورلي»

(Koeberlé) حيث استطاع أن يستخرج من تحت التراب ما يناهز 100 كسرة خزفية مكتوبة. =

من هذه الأسماء التي استطاع المختصون بعلم اللغات السامية قراءتها نذكر :
ماكون⁽²⁴⁾، وحبون، وعبد لبنان، وعبد تانيت، وابن تانيت، وبعيل يعطون
وإشمون يعطون، وغيرها من الأسماء الأخرى⁽²⁵⁾، التي — كما نلاحظ — لا
تختلف كثيرا عن اللغة العربية والعبرية.

فما هو الهدف يا ترى من خربشة هذه الأسماء على الأواني الخزفية ؟ مما لا
شك فيه أنها تمثل توقيعات الأشخاص الذين صنعوا الأواني. فيما أن أغلبية الأسماء
كتبت في قلال وأمغورات، فهذا يدفعنا إلى الاعتقاد أنها لم تصل فارغة إلى جزيرة
الصويرة، بل مملوءة إما ببعض السوائل أو بسلم صغيرة الحجم قصد مقايضتها
بمنتجات المنطقة. لذا فإن تأكيد الصانع أو المصدر الفينيقي على حق ملكيته بنقش
اسمه ولقبه على الآنية، كان الغرض منه حماية الآنية نفسها وأيضا حماية السلعة
الموجودة داخلها⁽²⁶⁾.

= وبعد ذلك، تمكن «جودان» (Jodin) — خلال الحفائر التي قام بها في الجزيرة ما بين عامي 1956
و1958 — من جمع خمسة وعشرين كسرة مكتوبة إضافية. وكان مصدر الكسرات التي اكتشفها
إما من الصجون المصبوغة بالبرنيق الأحمر (13 كسرة) أو من الأواني (كسرتان) أو من الأمفورات
(تسع كسرات) أو من القناديل ذات المشعلين (كسرة واحدة). انظر :
- A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit., p. 177-178.

(24) إنه اسم فينيقي معروف، ويكفي ذكر اسم عائلة «الماكونيين» التي حكمت قرطاجة خلال أوج
عظمتها في القرن الخامس قبل الميلاد لتتقن من ذلك.

(25) نذكر منها مثلا «جار سكن» و«حبيك ابن أدون» و«حامي القرت». وعلى العموم فإن أهم دراسة
لغوية توجد لحد الآن لهذه الخربشات قام بها «فيفري» (J.G. Février) ونشرها باشتراك مع مؤلفين
آخرين في كتاب عنوانه :

- Inscriptions antiques du Maroc (Inscriptions libyques, par G. Galaud; Inscriptions puniques
et néo-puniques, par J.G. Février; Inscriptions hébraïques; par G. Vajda), Paris, Editions
du C.N.R.S., 1966, pp. 109-123.

كما توجد بعض الصور لهذه الخربشات عند :

- P. Cintas, Contribution à l'étude de l'expansion carthaginoise au Maroc, Paris, Arts et
métiers graphiques ; 1954, pp. 55-56 ; fig. 71, 73, 87 - (a - b et c).

وانظر أيضا :

- A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit., chapitre VIII: Les graffiti phéniciens,
pp. 177 - 186; PL. LI à LIV.

(26) تمثل هذه الخربشات ضمانا للجودة وحماية من المزاحمة، خصوصا وأن السلع الفينيقية كانت تعاني
من مزاحمة قوية فرضتها عليها المنتجات الإغريقية المطلوبة بكثرة كذلك في الأسواق المتوسطية. من
هنا نتصور أن العملية التجارية التي كانت قائمة بانتظام بين الفينيقيين وأهالي الصويرة كانت تتطلب
محطة فينيقية في الجزيرة المقابلة، تاوي وسطاء دائمين يتوصلون من حين لآخر من موكلهم بعدد =

وكيفما كان الحال، فقد مكنتنا جزيرة الصويرة بفضل هذه الكتابات من الاطلاع على أقدم الوثائق المكتوبة عن تاريخ المغرب، رغم أنها لم تكن تتعدى في أغليبتها بضع حروف ولم تكن لتكون نصوصاً كاملة.

هذا عن الخزف والكتابات الفينيقية، فما هي الآن الشواهد الدالة الأخرى على توافد الفينيقيين على جزيرة الصويرة؟

من هذه الدلائل نذكر أولاً المواقع الكثيرة المكتشفة في التل الأثري على شكل أكوام من فحم الخشب⁽²⁷⁾. فهل هذه المواقع من بقايا مدفآت اسـمـلـها الفينيقيون للتدفئة داخل مساكن اندثرت نهائياً؟ هل هي مخلفات مكان الطبخ؟ أم تعتبر كما يرى «جودان»⁽²⁸⁾ الدليل الأكثر وضوحاً وإثارة عن التجارة الصامتة التي وصفها المؤرخ الاغريقي «هيرودوت»، والتي كانت «تتم بين التجار الساميين»⁽²⁹⁾ وسكان إحدى مناطق الساحل الأطلسي المغربي. فقد أكد هيرودوت أن الاتصال بين الشعبين لم يكن مباشراً، بل كان يتم بواسطة إشارات ضوئية أساسها استعمال النار من طرف الوافدين كعلامة على قدومهم⁽³⁰⁾.

= مهم من الأواني والجرار الحاملة لأسماء أصحابها والمحتوية على سلع المقايضة. ولربما كانت هذه الجرار مصحوبة بإيصالات الشحن مدونة إما على الخزف أو على ورق البردي تعطي معلومات دقيقة عن مصور السلعة وعن المرسل إليه وكذا عن طبيعة المنتج وغيرها من المعلومات التي تتطلبها عملية التصدير والاستيراد، وهذا ما أكدته مكتشفات مدينة «السامرة» بفلسطين، حيث تم العثور على كسرات خزفية مغرشة بكتابات فينيقية اعتبرت إيصالات شحن حقيقية. انظر :

- J.G. Fevrier, Inscriptions punique et néo-puniques, In.: Inscriptions antiques du Maroc, op.cit., pp. 122-123.

(27) وجدت مكدسة في جهات عدة من الصخر الأم، ولم تندثر وتتطاير بسبب ثقل تربة التل.

(28) - A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit, p. 48

(29) تجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من تحدث «هيرودوت» عن القرطاجيين، فلاشك أن أجدادهم الفينيقيين اتبعوا نفس الطريقة عند اتصالهم الأولى بسكان الساحل الأطلسي المغربي.

(30) يقول «هيرودوت» (Histoires, IV, 196): «يحكي القرطاجيون أيضاً ما يلي: يوجد في ليبيا، فيما وراء أعمدة هرقل بلد يقطنه أناس، عندما يصل القرطاجيون عند هؤلاء الأقوام ينزلون بضائعهم ويرتبونها على طول الساحل، ثم يصعدون إلى مراكبهم ويشعلون النيران ليتكون الدخان، وعندما يرى الأهالي الدخان يقدمون إلى شاطئ البحر ويضعون الذهب أمام البضائع ويتعدون. عند ذلك ينزل القرطاجيون من مراكبهم ويقومون بالمراقبة: فإذا تبين لهم أن الذهب كان مساوياً للبضائع فإنهم يأخذونه وينصرفون، وإلا فإنهم يصعدون إلى مراكبهم وينتظرون، حينئذ يعود الأهالي مرة ثانية ويضيفون الذهب على ما وضعوه إلى أن يتفقوا. فلا هؤلاء ولا أولئك يتميزون بعدم الاستقامة، =

فربما أن جزيرة الصويرة كانت إحدى مسارح هذه التجارة التي كانت قائمة إبان الاتصالات الأولى بين الفينيقيين والأهالي، حيث كان جو الحذر وعدم الثقة المتبادلة يطبع كما هو معلوم كل اتصال مبكر بين شعبين مختلفين⁽³¹⁾.

كما عثر «جودان» مرارا على عدة كتل مؤلفة من بعض الحصى الصغيرة⁽³²⁾ لم تنتج عن تكوينات جيولوجية، بل وصلت إلى المركز بواسطة الفينيقيين الذين نقلوها من الشاطئ القريب.

فهل كانت تصلح للترصيف؟ هل كانت هذه الحصى تستعمل لكسر العظام؟ أم هي بقايا الكوانين التي استخدمها الفينيقيون لطهي طعامهم؟ في الحقيقة لا نستطيع أن نتيقن من استعمالها إذا استثنينا رأي «جودان» الذي يعتبر أنها كانت تستعمل لكسر محار الأرجوان.

وفي منطقة توجد في موسطة التل الأثري، اكتشف عام 1957 عمود حجري منحوت مربع الزوايا، يبلغ طوله 1,47 م وعرضه حوالي نصف متر⁽³⁴⁾.

= إذ لا يلمس القرطاجيون الذهب مادام لا يبدو لهم يؤدي ثمن بضائعهم، كما أن الأهالي لا يلمسون البضائع قبل أن يكون القرطاجيون قد أخذوا الذهب. والجدير بالملاحظة في هذا الصدد أنه بالرغم من إشارة المؤرخ الاغريقي إلى إيقاد النار فوق المراكب، فهذا لا يعني أن القرطاجيين أو الفينيقيين لم يكونوا يقومون بذلك فوق الجزر. فبقايا الرماد الأسود المكتشف في جزيرة الصويرة :

(A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien,... op. cit., PL. XI, XII, XIV)

كان إما بقايا مواقد شجيرات وإما بقايا رماد أغصان كثيرة أحرقت لتشعل نارا كثيفة قصد رؤيتها من بعيد. ولاشك أن هذه المواقد كانت تظل مشتعلة طوال الليل كعلامة على افتتاح السوق المزمع قيامها في الصباح.

(31) غير أن مرحلة الحذر هذه سرعان ما تجاوزها الطرفان فيما بعد، حيث لم تعد الاتصالات بين الفينيقيين والأهالي تحتاج إلى إشارات نارية مسبقة كالشعار ليدل المقايضات. وهذا ما أكدته استبارات الجزيرة الآن علامات المواقد هذه لم يعثر عليها في المستويات الفينيقية الحديثة: مقابل اكتشاف كميات كثيرة جدا من بقايا العظام الحيوانية ومن الحطامات المختلفة المصدر، مما يؤكد على أن العلاقات التجارية عرفت طريقها وسعتها.

(32) تراوح حجم هذه الحصى ما بين خمسة وعشرة سنتيمترات، وقد اكتشفت مكدسة في الطبقة الأركيولوجية الفينيقية رقم IV.

(33) - A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit. p. 49

(34) يحتوي هذا العمود المنحوت في حجر الحث التلي على تجويف صغير في ثلثي علوه، وقد عثر عليه «جودان» ممدودا فوق الأرض في الطبقة الأركيولوجية الفينيقية رقم IV.

إنه يختلف في شكله عن الانصاب الجنائزية التي عرفها البونيقيون، لكن ارتباطه بإحدى المعتقدات الدينية الفينيقية أمر لا ينبغي تجاهله. ألا يمكن أن نرى فيه إحدى الانصاب الدينية المعروفة في فينيقيا باسم بيت إيل؟ فمن المعلوم أن من عادات بحارة صور إقامة مثل هذه المنشآت المادية في محطة يتوقفون بها لمباركة المعبودات الحامية للملاحة⁽³⁵⁾.

هذه إذن أهم الشواهد الدالة على توافد الفينيقيين على جزيرة الصويرة⁽³⁶⁾. فهل هي كافية لتسليط بعض الأضواء على منطقة الصويرة في علاقتها بالفينيقيين؟ إنه السؤال الذي يفرض نفسه الآن.

فمتى قدم الفينيقيون إلى المنطقة؟ كيف كانوا يعيشون داخل الجزيرة، وكيف كانت طبيعة مركزهم المشيد هناك؟ ما هي نوعية السلع المتبادلة بينهم وبين السكان المحليين؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه فيما يلي.

ففيما يخص معرفة تاريخ مرحلة توافد الفينيقيين على جزيرة الصويرة، فإن الخزف الإغريقي الواضح التصنيف والدقيق التأريخ كان حاسما في هذه القضية، إذ أثبت أن هذه المرحلة استمرت زهاء قرن ونصف، وأنها امتدت من بداية القرن

(35) كانت هذه الانصاب صورا مصغرة للنصبين الشهيرين الذين عرفها معبد الآلاه «ملقارت» بصور، حيث كان الأول منهما مصنوعا من الذهب والثاني من الزمرد، كما يشير إلى ذلك «هيروdotus» (Histoire, II, 44). كما لم تكن تختلف عن «بيت إيل» مدينة «جيبيل» الحجري الشبيه بقالب السكر

(G. Contenau, *La civilisation phénicienne*, Paris, Payet, 1962, p. 101 et p. 130)

ومما يؤكد على الطابع العقائدي لنصب جزيرة الصويرة هو العثور على أعداد كبيرة جدا من القناديل الفينيقية بنفس الطبقة الأركيولوجية التي اكتشفت بها العمود. ومن المعلوم أن القنديل كان يستعمل في الأزمنة القديمة لأغراض منزلية وأيضاً دينية — خصوصاً داخل المعابد — بنفس الدور الذي مازالت تلعبه الشموع في الأضرحة إلى يومنا هذا. ومما يؤكد هذا الاعتقاد هو أن آثار الفحم على قناديل جزيرة الصويرة كانت ضعيفة، مما يؤكد استعمالها الديني.

فهل عرفت الجزيرة خلال العصر الفينيقي معبدا في الهواء الطلق لا يحوي إلا منشأة واحدة على شكل نصب حجري تقام أمامه الصلوات وتقدم الذبائح؟ مما لا شك فيه، لأن فينيقيا نفسها تركت عدة دلائل عن ذلك.

(36) إلى جانب الشواهد السالفة الذكر، عرفت جزيرة الصويرة مخلفات فينيقية أخرى تتكون من بعض المواد البرونزية (جريسات — أساور — أقراط — صنانير... الخ). ولم أقم بذكرها نظرا لقلّة أهميتها ونظرا لضآلة أعدادها بالمقارنة مع الأواني الخزفية. انظر هذه المواد عند :

- A. Jodin, *Mogador, comptoir phénicien...*, op.cit., chapitre VII : Les objets en bronze, pp. 173-175 ; PL. L.

السابع قبل الميلاد إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد⁽³⁷⁾. ونحن لا نستغرب من هذه الكرونولوجية لأن الحقبة مثلت أهم مرحلة نشطت خلالها التجارة البحرية الفينيقية في الحوض المتوسطي وفي سواحل المحيط الأطلسي الأيبيري والمغربي⁽³⁸⁾.

(37) مما يركي هذه الكرونولوجية أن بعض المكتشفات الحديثة لخزف فينيقي في العديد من الأقطار المتوسطية مشابه لخزف جزيرة الصويرة أكدت تاريخه المتراوح بين القرن السابع قبل الميلاد والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. كما أن الدراسة الجيولوجية لخربشات جزيرة الصويرة الفينيقية أكدت بدورها أن شكل الحروف كان يستعمل خلال نفس المرحلة.

(38) منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد أو ربما منذ نهاية الألف الثانية على أقل تقدير، بدأ الفينيقيون في عملية توسعهم بالحوض المتوسطي بحثا عن المعادن الثمينة التي كانت تحتاجها الأسواق الشرقية. فسيطروا على التجارة البحرية إلى حدود القرن الثامن قبل الميلاد لخلو الساحة الدولية من منازع على أسواقهم غير أن التلاسقاطية الفينيقية ستعرف بعد ذلك خلافا كبيرا في هيمنتها على البحر، حيث سيظهر منافس جديد على خشبة الحوض المتوسطي، إثر تطور حركة الاستعمار الإغريقي. فممن أن دخل الفينيقيون والإغريق في صراع على صقلية، وبدأت الأطماع الهلنينة تهدد مصالح التجار الفينيقيين في غرب البحر الأبيض المتوسط، حدث توزيع جديد للهيمنة التجارية. وبعد أن تبينت بوضوح رغبة الإغريق في السيطرة على الضفة الشمالية للحوض المتوسطي، لم يجد الفينيقيون بدا من العمل بكل قوتهم على الحفاظ على وجودهم في الضفة الجنوبية للحوض، خصوصا على مدخل مضيق جبل طارق المؤدي إلى السواحل الأيبيرية والمغربية.

لذلك عرفت المرحلة المتراوحة ما بين أواسط القرن الثامن قبل الميلاد وبداية القرن السابع قبل الميلاد تشييد العديد من المخطات الفينيقية الثابتة، التي أصبحت تعمر من قبل مهاجرين فينيين جدد. كما تميزت هذه الحقبة التي استمرت إلى أواسط القرن السادس قبل الميلاد بعقد علاقات تجارية فينيقية كثيفة مع بعض الجهات، كما تشهد على ذلك مثلا مقابر ناحية طنجة. كما تميزت أيضا بالبحث عن أسواق جديدة ولجأ الفينيقيون لأول مرة، كما يؤكد ذلك وجودهم في جزيرة الصويرة خلال القرن السابع قبل الميلاد والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد وكان لابد أن يقوم الفينيقيون بذلك، لأن مدن الساحل الفينيقي عرفت خلال هذه الأحقاب ضغطا عسكريا آشوريا متواصلا، لم يكن يخفف من وطأته سوى أداء الجزية باستمرار على شكل سبائك من المعادن الثمينة. فكان الفينيقيون يضطرون إلى التكثيف من عملياتهم التجارية مع أقصى الغرب المتوسطي الغني بالمعادن، ويضطرون كذلك إلى البحث عن أسواق ومنافذ جديدة سعيا عما يمكن بواسطته تلبية طلبات الغزاة الآشوريين من الايتاوات الغير المنقطعة.

هذا النشاط التجاري الكثيف الذي عرفته الملاحة الفينيقية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط — الذي لم يكن له مثل من قبل —، سيقبل تدريجيا ابتداء من الربع الثاني من القرن السادس قبل الميلاد، لينتهي فجأة مع أواسط القرن السادس قبل الميلاد. ومن حسن الصدفة أن استراتيجيات جزيرة الصويرة تبين هذا التحول المباغت بشكل واضح، حيث نجد أن الطبقة الأثرية رقم IV الغزيرة بمواد التجارة الفينيقية تكسى بطبقة رملية جدياء رسيها الرياح.

ولا يمكن تفسير ذلك إلا بما حدث في الشرق الفينيقي، حيث حوصرت جل المدن الفينيقية في الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد خلال حكم «نبوخذ نصر» الكلداني (605 — 562 ق — م). =

خلال هذه المرحلة، أين كان الفينيقيون يستقرون في جزيرة الصويرة ؟ وكيف كانت طبيعة مقامهم هناك ؟

من خلال تعدادنا للمعثورات الفينيقية السالفة الذكر، نلاحظ أننا لم نشر إلى أية منشأة مبنية في الطبقة الأركيولوجية رقم IV⁽³⁹⁾، مما يجعلنا متيقنين من أن الفينيقيين لم يشيدوا بنايات من مواد دائمة خلال مدة استقرارهم بالجزيرة⁽⁴⁰⁾. فأين كانوا يمشون ؟

إن أول مسكن لا بد وأن استعمله كل بحار فينيقي كان ظهر مركبته، كما يشير إلى ذلك الجغرافي الإغريقي «استرابون» (Strabon) عند حديثه عن سكان قادش خلال عهد أغسطس، مبينا أن مساكنهم كانت فوق سفنهم⁽⁴¹⁾. وبعد عملية الرسو التي كانت تتم في شاطئ الجزيرة فمن الممكن أن يظل بيت الفينيقي في نفس مركبته بعد قلبها فوق الرمال، كما يذكر ذلك المؤرخ الروماني «سالوست» (Salluste) متحدثا عن الشعوب الوافدة على شمال إفريقيا⁽⁴²⁾.

= ورغم مقاومة صور — أقوى المدن الفينيقية للحصار الشديد الذي ضرب عليها لمدة 13 سنة (586 — 573 ق م)، إلا أنها ما فتئت أن سقطت في عهد ملكها «إتبعل» لا ويمثل هذا الحدث نهاية عهد التوسع الفينيقي نحو الغرب، وظهور قرطاجة كقوة بحرية واردة من مؤسسيها الفينيقيين مفتاح السيطرة على التجارة البحرية في الحوض المتوسطي الغربي لمدة أربعة قرون أخرى.

(39) لا توجد المساكن المبنية في جزيرة الصويرة سوى في الطبقات الأركيولوجية العليا المؤرخة بالعصر الموريطني والعصر الروماني، حيث شيدت بنايات بحجارة مثبتة من جير.

(40) هذا لا يعني طبعاً أن الفينيقيين لم يكونوا يعرفون تشييد المدن، أو إقامة منشآت معمارية كبرى مبنية بمواد صلبة، فمدن فينيقيا الكثيرة كصور وصيدا وجبيل كانت تحوي مساكن ضخمة، مزينة بأعمدة وتيجان جميلة، ومزخرفة بزخارف مصبوغة أو منحوتة، انظر :

— محمد أبو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.

(41) G.C. et C. Picard, *Vie et mort de Carthage*, Paris, Hachette, 1970, p. 25.

(42) يقول «سالوست»: «... الميديون، والفرس والأرمينيون... انتقلوا إلى إفريقيا فوق المراكب... وقد استقر الفرس أبعد من الآخرين... وكانوا يستعملون عوضاً عن المساكن هياكل سفنهم التي يقلونها».

انظر : Salluste, *Guerre de Jugurtha*, XVIII, 5.

وتجدر الإشارة أن «سالوست» يتحدث هنا عن أقدام لم تصل أبداً إلى شمال إفريقيا، ويبدو — كما يقول «كسيل» (Grell) أن ذكر «سالوست» لهذه الأقدام راجع إلى تشابه أسماء بعض القبائل المغربية القديمة بأسماء بعض الشعوب الشرقية، كتشابه مثلاً اسم «الفاروزيين» «بالفرس» و«الموريين» «بالمدرين». انظر :

- S. Grell, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord*, réimpression de l'édition de Paris 1920-1929, T I, p. 334-335.

كان في إمكان الفينيقيين أيضا الإقامة تحت الخيام، التي تكون سهلة المنال بعد إحدى قلاع السفينة، خصوصا وأن السفينة يمكن أن تزود الخيمة بالعديد من اللوازم التي تحتاج إليها كالأوتاد والحبال والسواري. وهذا ما نفهمه من خلال الرحالة الإغريقي «سكيلاكس» (Scylax) حيث يقول⁽⁴³⁾ : «عندما يصلون (أي الفينيقيون) إلى كرني (من المحتمل أن يكون توطينها في جزيرة الصويرة)⁽⁴⁴⁾ فإنهم يربطون مراكبهم المستديرة وينصبون الخيام في الجزيرة.

ولذا اعتبرنا أن الفينيقيين لم يستعملوا الأشياء المرتبطة بسفنهم فإنهم من الممكن أن يكونوا قد استقروا داخل بعض الأكواخ أو النوات. وهذا ما قاموا به عندما قدموا إلى جزيرة سردينية حسب المؤلف الإغريقي «يوزانياس» (Pausanias)⁽⁴⁶⁾. فهل كانت قيعان الأكواخ التي عثر عليها «جودان»⁽⁴⁷⁾ في جزيرة الصويرة من بقايا المساكن التي شيدها الفينيقيون؟⁽⁴⁸⁾. إلى جانب الكوخ كان في إمكان

Scylax, 112 (43)

(44) نوقشت بكلية الآداب بفاس يوم 23 يونيو 1990 رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم تحت عنوان «رحلة حنون، دراسة وتحقيق».

ومن المواضيع الهامة التي أثارها هذه الرسالة التي كنت من بين أعضاء مناقشتها قضية تحديد جزيرة «كرني» أو جزيرة «القرى»، التي أشار إليها حنون في رحلته، وذكرت أيضا عند العديد من المؤلفين القدامى بما فيهم «سكيلاكس». ورغم أن المهتمين كانوا يختلفون في توطن هذه الجزيرة بين من كان يحددها في وادي الذهب ومن حددها في جزيرة «سيدي يوسف» داخل مصب واد سبو، إلا أن صاحب الرسالة يعتبر أن جزيرة «كرني» هذه هي جزيرة الصويرة. انظر :

— عبد اللطيف البرنيسي، رحلة حنون «دراسة وتحقيق»، مكتبة كلية الآداب بفاس، الفصل الخامس: حنون والمغرب، 3) البحث عن جزيرة «كرني»، ص 241 — 262. ومن بين المؤرخين المحدثين الذين يذكرون هذا الرأي إلى جانب «أندري جودان» نذكر «جيهان ديزانج». انظر :

- J. Desomges, *Recherches sur l'activité des méditerranéens aux confins de l'Afrique*, Paris, Ecole Française de Rome, Palais Farnèse, 1972, pp. 118-119.

(45) خلال الرحلة الشهيرة التي قام بها «ونامون» من مصر إلى بلاد فينيقيا في حدود عام 1070 قبل الميلاد، مكث مدة طويلة داخل خيمة نصبت قرب الشاطئ في انتظار المثل بين يدي أمير مدينة «جيبيل» الفينيقية. انظر الترجمة الكاملة لنص رحلة «ونامون» عند :

- M.E. Aubet, *Tyre y las colonias fenicias de occidente*, Barcelona, Editoriales Bellaterra, 1987, Apéndice II : El Viaje de Unanion a Fenicia, pp. 303-307.

- Pansanias, X, 17 (46)

- A. Jodin, *Mogador, comptoir phénicien...*, op.cit., p. 29 (47)

(48) من المحتمل أن يكون الفينيقيون قد مكثوا في جزيرة الصويرة داخل بعض الأكواخ في انتظار نفاذ سلعهم. فالكوخ المصنوع من الخشب المستطيل الشكل أو الأسطواني، ذو السقف المسنح أو المقرن، =

الفينيقيين الاستقرار داخل مساكن مصنوعة من الآجر الطري المخلوط بالطين والجفف في الشمس. وكان «جودان» قد اكتشف بعض العلامات عن ذلك بعثوره على طبقات سميكة من الطين الحمراء التي كان مصدرها من اليابسة المقابلة للجزيرة⁽⁴⁹⁾.

من هنا نلاحظ أن المركز الذي استقر فيه الفينيقيون لم يكن محطة ثابتة أو مدينة مبنية كالمراكز الفينيقية الكبرى المعروفة، مثل ليكسوس في المغرب وقادش في إسبانيا وقرطاجنة في تونس. لقد كان عبارة عن محلة تجارية موسمية تتمركز في الجهة الجنوبية الشرقية للجزيرة، شبيهة لحدها بمخيمات الرحل⁽⁵⁰⁾.

فتردد الفينيقيين على جزيرة الصويرة كان دوريا، وبالتالي فإن مدة استقرارهم

= كان دائما ومايزال يعتبر من المآوي التي تشيدها العائلة الواحدة بسهولة وبتكاليف بسيطة، وخلال ساعات من العمل بموارد محلية محضه. بهذه الكيفية كانت تشيد «الماباليا» في شمال إفريقيا القديمة التي يشير إليها المؤرخ «سالوست» (8, Salluste, Guerre de Jugurtha, XVIII) كما أن النواة المغربية التي نجدها حاليا في العديد من الدواوير، صنعت هي أيضا بنفس الطريقة تقريبا. وقد عثر عالم الآثار الفرنسي «فيمو» (Vuillemot) في الخمسينات بمركز «مرسى مداخ» الفينيقي بالجزائر على نموذج من هذه الأكواخ التي ربما كانت تشبه الأكواخ المشيدة من طرف الفينيقيين في جزيرة الصويرة (G. Vuillemot, Fouilles puniques à Mersa-Madakh, Libya, 1954, pp. 299 et ss) إنه عبارة عن مسكن بسيط يبلغ طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار، يحتوي على أرض مستطيلة من الاسمنت، تحيط به جدران من حجارة تلوها بعض القواعد من الآجر. ولم تكن هذه الجدران تصعد إلى الأعلى لكي تحمل السقف، بل كانت تحمله جائزات خشبية عمودية مغروسة في الأرض، ولعل انعدام توفر المسكن على أوتاد الدعم عند زوايا الحجرة، يفسر بأن الجائزات الخشبية كانت تحمل سقفا مقوسا يتكون من مواد قابلة للانشاء كالقصب أو الحشف أو البوريات أو حصائر الصفصاف.

إضافة إلى مسكن «مرسى مداخ» المؤرخ على أقل تقدير بالقرن السادس قبل الميلاد، عثر «دندان» (Dunand) بلبنان على مسكن يشبه كثيرا النواة الجزائرية.

- (M. Dunand, La maison de la sagesse, Bulletin du Musée de Beyrouth, IV, 1940, p. 69).

- A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit., p. 49 (49)

(50) لاشك أن انعدام الماء الشروب بالجزيرة كان من بين العوامل التي لم تشجع الفينيقيين على تأسيس مركز دائم. فخلال العصر الروماني كان الماء يوفر بفضل خزانات خصصت لجمع ماء المطر أثناء فصل الشتاء. أما خلال العصر الفينيقي فلا تتوفر على معلومات تفيدنا في معرفة طريقة جمعه، غير أنه من المحتمل أن الفينيقيين كانوا يتزودون به من اليابسة المقابلة لجزيرة الصويرة. فمدينة صور التي شيدت فوق جزيرة بحرية، كانت تزود بالماء الشروب من اليابسة المقابلة لها بعد حمله في زوارق صغيرة، وبعد ذلك شيد ملوك صور العديد من النطاقي لخزن الماء في عاصمتهم. انظر :

- M.E. Aubert, Tyro y las colonias fenicias de occidente..., op.cit, p. 32.

إما خلال أسبوع أو شهر أو أكثر من ذلك⁽⁵¹⁾، كانت تتغير من سنة إلى أخرى قبل حلول فصل الرياح التجارية العكسية التي تعذر من إمكانية الإبحار. إلا أن اعتبار الجزيرة كمحطة موسمية لا يمنعنا من الاعتقاد بوجود مركز دائم في المنطقة. ألا يمكن البحث عنه في مدينة الصويرة نفسها، التي كانت على شكل جزيرة كبيرة اتصلت فيما بعد باليابسة، وهي لا تبعد عن الجزيرة الحالية سوى بتسع مائة متر⁽⁵³⁾ ؟

إنه تساؤل جذير بالاهتمام خصوصا وأن «جودان» عثر في مدينة الصويرة على سور اعتبره — حسب تقنية بنائه — سورا فينيقيا⁽⁵⁴⁾.

فإذا تأكد يوما ما أن مدينة الصويرة كانت المركز الأساسي الذي استقر فيه الفينيقيون، فمن البديهي ألا تعتبر الآثار الفينيقية المكتشفة في الجزيرة إلا بقايا مخزن كبير تحط فيه البضائع العابرة في انتظار مرور إحدى المراكب لحملها.

وكيفما كان الحال، وسواء استقر الفينيقيون في محطة موسمية بجزيرة الصويرة أو في مركز كبير وبما يوجد الآن تحت منشآت المدينة، أو استقروا فيهما معا،

(51) يشير حنون في رحلته أنه مكث مدة طويلة عند اللكوسيين. انظر :

- Périple d'Hannon, 6 ; Ap. R. Roget, *Le Maroc chez les auteurs anciens*, Paris, Les Belles Lettres, 1924, p. 18.

في هذه الحالة من الممكن أن يكون الفينيقيون قد زاولوا بعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى في انتظار رحيلهم، كما نفهم ذلك من خلال «هيرودوت» حيث يقول : «وهكذا أبحر الفينيقيون من البحر الأحمر إلى البحر الجنوبي. وعندما يحل الخريف كانوا يستقرون في أي مكان من ليبيا يصلون إليه، فيحرثون الأرض وينتظرون موسم الحصاد. وعندما يجمعون الحبوب يستنفون الإبحار» (Hérodote, *Histoire*, IV, 42).

(52) من الناحية الجغرافية تمثل جزيرة الصويرة إحدى الكتل الحثية التي انفصلت عن اليابسة خلال الزمن الجيولوجي الرابع، مكونة مع الجزر الأخرى القرية أرخبيا صغيرا (انظر لوحة III رقم 1). وفيما بعد التحمت إحدى الجزر باليابسة من جديد من جراء الترسبات التي كان يقذف بها واد القصب، وهي التي شيدت فوقها مدينة الصويرة (انظر لوحة III رقم 2). ولاريب أنها كانت معقلا لمركز قديم يتعذر العثور عليه حاليا بسبب احتمال وجوده تحت المنشآت الحديثة.

(53) لا تبعد الجزيرة عن ميناء مدينة الصويرة سوى بتسع مائة متر، كما لا تفصلها عن مصب وادي القصب إلا ألف وخمسمائة متر (انظر لوحة III رقم 2) وتجدر الإشارة أن جزيرة «كرني» تبعد عن اليابسة حسب «بوليبوس» بثان «اسطادات»، أي ما يعادل ألفا وخمسمائة متر. انظر :

- Plin, VI, 36, 2.

(54) - A. Jodin, *Les Phéniciens à Mogador*, op.cit, p. 89-90

فما يهمننا نحن أنهم قدموا إلى المنطقة، وأنهم أبرموا علاقات تجارية مع السكان المحليين، كما يشهد على ذلك الخزف المحلي المكتشف بجانب الخزف الفينيقي⁽⁵⁵⁾.
فما هي السلع المتبادلة بين الطرفين، علما بأن أساس التجارة الفينيقية كان يقوم على المقايضة⁽⁵⁶⁾.

(55) عثر «جودان» في المستوى الأركيولوجي الفينيقي رقم على كسرات خزفية لم تكن مصنوعة بالخرقة كما هو الشأن بالنسبة للخزف الفينيقي، بل كانت أخزافا مصنوعة باليد (Céramique modelée). إنه خزف محلي وجد باستمرار في العديد من المراكز الفينيقية المؤرخة بالقرن السابع وبداية القرن السادس قبل الميلاد، سواء في ليكسوس أو في مقابر ناحية طنجة أو في جزيرة «راشكون» ومركز «مرسى مداخل» بالجزائر. من مميزات هذا النوع توفره على زخرفة تتشابه في كل الأواني حيث كانت تشترط قبل شوائها بالظفر أو بمخراز خاص أو تقررص بالأصبع لتعطينا زخرفة على شكل شبكات أو أنصاف أقمار متراكبة أو غيرها من الزخارف المشربة أو المقرصة. إنه الخزف المدعو «بالخزف المشربة» أو «المطبوع» أو «بالخزف ذي التأثير النوليتي» أو «بالخزف البربري القديم». ولعل أن العثور على لقي قليلة من هذا النوع في جزيرة الصويرة يدل على أن هذا المنتج كان يمثل آخر المنتوجات المحلية ذات التأثير النوليتي التي لقيها الفينيقيون عند اتصالهم بأهل المنطقة. وهي الأنواع التي عرفت المستويات الأركيولوجية الحديثة في العديد من المراكز «المقابليل — تاريخية» (Protoléstoriques) بالمغرب، نذكر منها مركز مغاور الخيل برأس أشقار ومركز كهف البارود بناحية بنسليمان، ومركزي دار السلطان وتمارة. انظر المعلومات الخاصة بهذا النوع الخزفي عند :

— محمد رضوان العزيفي، الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان، المرجع السابق الجزء الأول، ص 278 — 281.
وانظر أيضا :

- A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit, pp. 166-169 ; PL. XLVI à XLIX.

إن العثور على الخزف المحلي في جزيرة الصويرة بأعداد قليلة جدا يدل على أن السكان المحليين لم يكونوا مستقرين في الجزيرة، بل في مكان ما من اليابسة المقابلة، ولأشك أن الاتصال بين الشعبين لم يكن يتم في الجزيرة إذ من الأرجح أن الفينيقيين كانوا يتصلون بالسكان المحليين بواسطة مراكب صغيرة عند القيام بالمبادلات التجارية. فإذا اعتبرنا أن جزيرة «كرني» التي يذكرها سكيلاكس هي جزيرة الصويرة، فإن هذا المؤلف يعطينا صورة واضحة عن كيفية الاتصال بين الفينيقيين وسكان المنطقة حيث يقول : «التجار هم الفينيقيون، عندما يصلون إلى كرني فإنهم يربطون مراكبهم المستديرة وينصبون الحيام في الجزيرة. ينزلون حمولتهم ثم ينقلونها إلى اليابسة في مراكب صغيرة، يوجد هناك الأثيوبيون مع من يقيمون المبادلات». انظر : Scylax, 112.

(56) كان الفينيقيون يتجرون بالمقايضة خلال إبحارهم الأولى. ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد بدأوا يستعملون بعض القطع المعدنية من ذهب وفضة تمثل قيمة السلع المتبادلة. غير أن استعمال هذه الوسيلة الآشورية الأصل كان على ما يبدو ويقتصر على مناطق الشرق الأوسط. أما فيما يخص الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط بما فيه السواحل المغربية، فإن هذه التجارة كانت دائما تقوم على أساس المقايضة كما توضح ذلك جل النصوص التاريخية القديمة.

من الصعب تحديد هذه السلع، لأنه يتعذر علينا أحيانا تفصيل مواد التجارة الفينيقية نفسها، وإقامة لائحة دقيقة لمكوناتها. ومع ذلك فإن جل المصادر القديمة التي تحدثت عن التجارة الفينيقية مع الشعوب المتوسطية⁽⁵⁷⁾ اتفقت على أنها كانت تجارة ذات وظيفتين : فمن جهة أولى كانت تجلب المعادن الثمينة التي تحتاج إليها أسواق الشرق الأوسط كالفضة والذهب والقصدير والنحاس وبعض المواد الثمينة كالعاج، ومن جهة أخرى كانت تقوم بتوزيع مواد مصنعة كالأواني المعدنية والملبوسات الرفيعة والمواد العاجية. كما كانت تقوم على توزيع مواد البذخ — التي يمكن تشبيهها حاليا «بمتوجات باريس» — كالزجاج الرفيع والعطر والحلي بشتى أنواعها، وأيضا الخزف الرفيع سواء الفينيقي أو الإغريقي⁽⁵⁸⁾.

ويكفينا ذكر الخزف هنا لابرز أن الكسرات الكثيرة التي اكتشفت في جزيرة الصويرة من النوعين الفينيقي والإغريقي ما هي إلا جزء من الواردات الفينيقية⁽⁵⁹⁾.

كما أن العثور على حوالي عشرين نموذجا من القنينات الفينيقية التي كانت تستعمل لحمل العطور تعتبر شهادة أخرى عن هذه الواردات. ولعل أن «سكيلاكس» كان صادقا في كلامه عندما أشار إلى مثل هذه المواد في حضم حديثه عن تجارة الفينيقيين مع أهل جزيرة «كرني»، حيث قال⁽⁶¹⁾ :

«... يحضر لهم التجار الفينيقيون العطر وحجر مصر،، والاختراف الآتيكية والأقداح».

(57) كالحوليات الآشورية وأسفار التوراة وإشارات المؤلفين الإغريق واللاتينيين.

(58) حاولت تحديد المواد التي كان يتجر بها الفينيقيون مع المغاربة القدماء خلال الندوة التي نظمتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية (عين الشق) بالدار البيضاء في موضوع : «التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب» أيام 21، 22، 23 فبراير 1989. وكان عنوان المداخلات التي لم تنشر بعد شأنها شأن كل أعمال الندوة : «السلع المتبادلة بين الفينيقيين والمغاربة القدماء كأقدم نموذج عن علاقات المغرب التجارية مع العالم المتوسطي».

(59) كان الخزف الإغريقي الرفيع كالخزف الآتيكي والخزف الفينيقي ذو البرنيق الأحمر من الأنواع المطلوبة في الأسواق المتوسطية. ولأدل على ذلك العثور في جزيرة الصويرة على بعض الصحن المحتوية على ثقب في إحدى جهاتها، مما يدل على أنها كانت تعلق على الجدران نظرا لقيمتها الجمالية.

(60) انظر هامش رقم 20.

(61) Scylax, 112

هذا كل ما تتوفر عليه من معلومات في شأن تحديد بعض الواردات التي أوصلها الفينيقيون إلى جزيرة الصويرة. ولاشك أنهم اتجروا مع السكان المحليين بمواد أخرى اندثرت مع الزمن كالألبيسة الأرجوانية، التي اكتشفت بأعداد هائلة في المدافن المحلية المعاصرة للوجود الفينيقي بفحص طنجة⁽⁶⁴⁾.

أما إذا أردنا أن نحدد المواد التي كان يأخذها الفينيقيون من المنطقة، فإننا نواجه صعوبات أكثر حدة⁽⁶⁵⁾، لأن الشواهد الأثرية التي سبق ذكرها لاتساعدنا كثيرا على توضيح بعض ملامح الصادرات الفينيقية، باستثناء بعضها، فإذا كانت الحصى العديدة التي اكتشفها «جردان» تصلح حسب رأيه لكسر محار الأرجوان، فهذا

(62) أشار النبي العبري «حزقيال» حسب التوراة إلى أهمية تجارة العطور بالنسبة للفينيقيين. انظر : — سفر حزقيال، الاصحاح السابع والعشرون : 22.

(63) المقصود به الزجاج في هذه العبارة حسب العديد من المؤلفين، انظر :

- M. Besnier, *La Géographie économique du Maroc dans l'antiquité*, Archives Marocaines, Paris, Publications de la mission scientifique du Maroc, T VII, 1906, p. 287 ; J. Desanges, *Recherches sur l'activité des méditerranéens aux confins de l'Afrique*, op. cit., p. 117.

(64) يعتبر فحص طنجة المنطقة الوحيدة في المغرب التي احتفظت لنا بآثار أركيولوجية واضحة عن اتصال الفينيقيين بالمغاربة القدماء. فقد خلفت من جهة قبورا فينيقية محضة، ومن جهة ثانية خلفت أعدادا كبيرة من المدافن المحلية التي كانت بالقرب منها. لهذا السبب اقتصرنا على دراسة هذه المنطقة دون غيرها من المناطق المغربية في الرسالة التي تقدمت بها لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم (انظر هامش رقم 11)، معتمدا بالدرجة الأولى على الحفائر التي أجراها «ميشيل يونسك» (M. Ponsich) بعين المكان خلال الستينات. فيفضل هذه المدافن، وبفضل الأعداد الكثيرة من المحتويات الفينيقية والمحلية التي اكتشفت داخلها، أعطانا فحص طنجة مثالا فريدا من نوعه عن توافد الفينيقيين إلى شمال المغرب خلال نفس المرحلة التي وصلوا فيها إلى جزيرة الصويرة. كما أعطانا صورة نموذجية عن حالة المغاربة الذين اتصلوا بالفينيقيين، وعن نوعية العلاقات التي جمعت بينهما. ففحصنا أيضا مثلا دراسة الواردات التي جاء بها الفينيقيون، أبرزت أن أهم مادة فينيقية وصلت إلى فحص طنجة مثلها الأعداد الكبيرة والمتنوعة من الحلي، حيث أحصيت ما يناهز 146 حلية و210 مجوهرات مصنوعة من عجين الزجاج من أصل 19 نوعا مختلفا. كما أن بيض النعام المزخرف أو العادي الذي حظي بطلب كبير في الأسواق المتوسطة، كان حاضرا أيضا ضمن الواردات الفينيقية إلى المنطقة، حيث عثر على ما مجموعه 15 بيضة. انظر :

— محمد رضوان العزفي، الفينيقيون بفحص طنجة وعلاقتهم بالسكان، المرجع السابق، الفصل الثاني من الباب الثالث: السلع المتبادلة بين الفينيقيين وسكان شمال غرب المغرب خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، ص. 70 — 143. انظر بالخصوص جدول رقم 1 و2.

(65) يذكر «سكيلاكس» أن الفينيقيين كانوا «يقايضون سلهم عندما يصلون إلى جزيرة «كرني» بجلود الحيوانات وبالعالج» (Scylax, 112). غير أن مكتشفات جزيرة الصويرة (ربما جزيرة كرنى) لم تؤكد هذا الكلام، خصوصا فيما يتعلق بالعالج، إذ لم يعثر على أي أثر لأنياب الفيلة.

يعني أن من بين المواد التي ربما قدم من أجلها الفينيقيون نذكر محار المركس. فهل كان الفينيقيون يستخرجون الصبغة الأرجوانية في عين المكان بطريقة أم بأخرى ؟ مما لاشك فيه الآن محار المركس عثر عليه مهشما بكثرة في اليابسة المقابلة للجزيرة، كما أن نفس الجزيرة عرفت صيتا كبيرا في صناعة الأرجوان خلال عهد يوبا الثاني، الملك المغربي الشهير⁽⁶⁶⁾.

من المواد الأخرى التي ربما صدرها الفينيقيون من المنطقة نذكر مادة الصمغ المستخرجة من شجر العرعار الذي عرفه الإقليم منذ بداية العصر الجيولوجي الرابع. فتجارة الصمغ اشتهرت بها كثيرا منطقة حاحة ومن المرجح أنها عرفت منذ مجيء الفينيقيين⁽⁶⁷⁾.

غير أن إقدام الفينيقيين على تحمل كل متاعب الإبحار في المحيط الأطلسي لولوج أبعد نقطة وصلت إليها سفنهم⁽⁶⁸⁾، لا يمكن تفسيره فقط يبحثهم عن مواد ثانوية مثل التي سبق ذكرها. فلاشك أن الفينيقيين وصلوا إلى جزيرة الصويرة بحثا عن شيء ثمين جدا، ولا أغلى للفينيقيين من المعادن.

هذه الأهمية نجدها واردة عند «هيرودوت»⁽⁶⁹⁾ عندما يبين أن اجتياز التجار الساميين لأعمدة هرقل في اتجاه المحيط الأطلسي المغربي لم يكن من ورائه أي هدف سوى البحث عن المعادن الثمينة.

(66) اشتهرت جزيرة الصويرة خلال عهد يوبا الثاني (25 ق — م 23 م) بصناعة الأرجوان المستخرج من محار المركس الذي عثر عليه بأعداد كثيرة في الجزيرة انظر :

- A. Jodin, Les établissements du Roi Juba II aux îles purpuraires (Mogador), Feuilles du service des Antiquités du Maroc, Tanger, 1967.

(67) - A. Jodin, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit, p. 49 - 51

(68) ليس ضروريا أن يكون الفينيقيون الذين وصلوا إلى جزيرة الصويرة قد قدموا إليها مباشرة من لبنان. فلعل طول المسافة الفاصلة بين ساحل فينيقيا وساحل المحيط الأطلسي المغربي حتم على الفينيقيين تشييد محطة تجارية كبرى على الساحل المغربي تقوم بدور المدفء الكبير وتحدد نوعية وعدد البضائع التي تطلبها الأسواق المحلية وتتكلف بتوزيعها. ولاشك أن هذا الدور قامت به مدينة «ليكسوس» — أقدم مستوطنة فينيقية بالبلاد — خلال مدة طويلة، حيث كانت تنزل فيها السلع الواردة من الشرق الأوسط، وفي نفس الوقت تخزن بها المواد المحلية المتنوعة المصدر لتصدر إلى فينيقيا. انظر :

— محمد رضوان العزيفي، مكانة ليكسوس خلال العصر الفينيقي بالمغرب الندوة الوطنية المنظمة من طرف وزارة الثقافة عن «مدينة ليكسوس» بالعرائش، يومي 24 و25 يونه 1988 (تحت الطبع).

(69) انظر نص «هيرودوت» في هامش رقم 30.

ومن حسن الحظ أن مكتشفات جزيرة الصويرة جاءت لتؤكد هذا الطرح، لما عثر «أندري جودان» على قوالب فخارية تستخدم لصهر المعادن⁽⁷⁰⁾، وعلى بعض شظايا المعادن المشتتة في الطبقة الأركيولوجية الفينيقية.

إنه أهم دليل مادي اكتشف لحد الآن في المغرب عن استغلال الفينيقيين للمعادن⁽⁷¹⁾. ونحن لا نستغرب من ذلك، لأن ناحية الصويرة لم تكن بعيدة عن مناجم الأطلس الكبير وسوس، حيث لدينا عدة دلائل عن استغلال هذه المناجم منذ القدم⁽⁷²⁾. كما كانت المنطقة أيضا قريبة من جبل يدعى «جبل حديد» الذي لا يبعد عن مدينة الصويرة في اتجاه الشمال الشرقي سوى بحوالي 25 كلم، والذي كان يحتوي على منجم الحديد⁽⁷³⁾.

هكذا كانت إذن جزيرة الصويرة في علاقتها بالفينيقيين خلال القرن السابع والنصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد — ولم تكن المحطة الموسمية التي أسسها الفينيقيون هناك فريدة من نوعها في العالم القديم، إذ كثيرة هي الجزر التي فضلها الفينيقيون لجعلها مراكز تجارية، نذكر منها جزيرة «مدنية» بصقيلة و «تسولكيس» بسردينية و «راشكون» بالجزائر و «قادس» بإسبانيا⁽⁷⁴⁾.

(70) عند اكتشاف هذه القوالب الفخارية، تبين أنها كانت مزججة بفعل الحرارة. ويمكن أهميتها في تشابهها مع نماذج ماثلة عثر عليها في إسبانيا بمركزي «سترو سلمون» (Cerre Salomon) و«ريونيطو» (Rio Tinto). وهي عبارة عن خراطيم تحتوي على ثقب واحد مربع أو ثقبين تمثل فوهة زق الحداد، تستخدم لصهر المعادن. انظر :

- A. Jodin, Carthage et le Maroc phénicien, *Bulletin d'Archéologie Marocaine*, T XI, 1977-78, p. 76; Idem, Mogador, comptoir phénicien..., op.cit., p. 49; PL. XXXVI.

(71) حاولت مناقشة إشكالية البحث عن المعادن المغربية كعامل من عوامل التوسع الفينيقي بالسواحل المغربية — مع إبراز دور ليكسوس في ذلك خلال الملتقى الدولي الأول حول مدينة ليكسوس الأثرية، المنظم من طرف وزارة الثقافة بالعرائش أيام 8 — 11 نوفمبر 1989، انظر :

- M.R. El Azifi, *La place de Lixus dans le Maroc phénicien* (sous presse).

(72) - A. Jodin, Les gisements de Cuivre du Maroc et l'Archéologie des métaux, *Bulletin d'Archéologie Marocaine*, T VI, 1966.

(73) تتوفر القنصلية الفرنسية بالمغرب على وثيقة تثبت استغلال الحديد في «جبل الحديد» خلال عام 1907، انظر :

- A. André et J. Le Coz, Economie minière, Publications du Comité de géographie du Maroc, *Atlas du Maroc* (Notices explicatives de la planche n° 41 a), Rabat, 1961, p. 11.

(74) إنها جزر متشابهة من حيث طوبغرافيتها ومن حيث وضعيتها تجاه الرياح، ومن حيث المسافة التي تفصلها عن اليابسة.

غير أن جزيرة الصويرة التي كانت مع ذلك فريدة من نوعها في المغرب⁽⁷⁵⁾، تميزت عن كل هذه الجزر باعتبارها آخر نقطة وصلها التوسع الفينيقي في العالم القديم⁽⁷⁶⁾. كما ساهمت في إدخال المنطقة بصفة خاصة والمغرب بصفة عامة إلى العالم المتوسطي.

(75) لا توجد في كل الساحل الأطلسي المغربي سوى جزيرتان، وهما جزيرة المحمدية التي اتصلت باليابسة وتأوي الآن جل المراكز الصناعية بالمدينة، أما الجزيرة الثانية فهي جزيرة الصويرة.

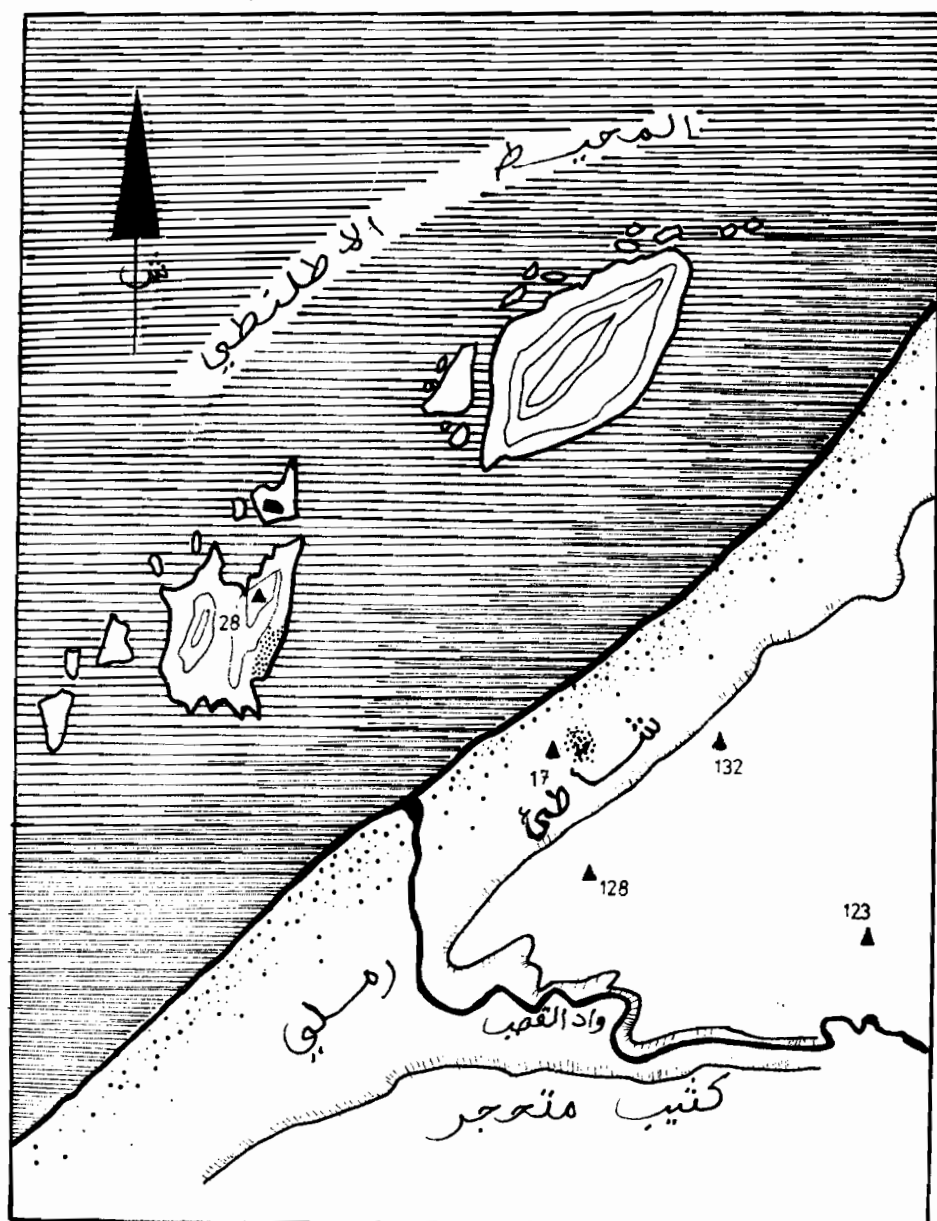
(76) إذا اعتبرنا أن جزيرة الصويرة كانت آخر محطة أسسها الفينيقيون على الساحل الأطلسي المغربي، بقي أن نتساءل عن المحطات الأخرى التي كانوا يتوقفون فيها تبعاً لمتطلبات الملاحة الفينيقية التي اعتمدت أساساً على المساحة في السواحل المغربية. فبعد المكتشفات الفينيقية في ناحية طنجة وفي ليكسوس، كان آخر ما أظهره ملح الآثار عن الوجود الفينيقي بالمغرب، بعض المواد المكتشفة في شالة - J. Boube, Les origines phéniciennes de Sala de Maurétanie, *Bulletin Archéologique du C.T.H.S.*, n° 17, Année 1981, Fascicule B. Paris, 1984, pp. 155-170.

فأين كان يتوقف الفينيقيون خلال اجتيازهم لمساحة أربع مائة وخمسين كيلومتراً الفاصلة بين سلا والصويرة ؟

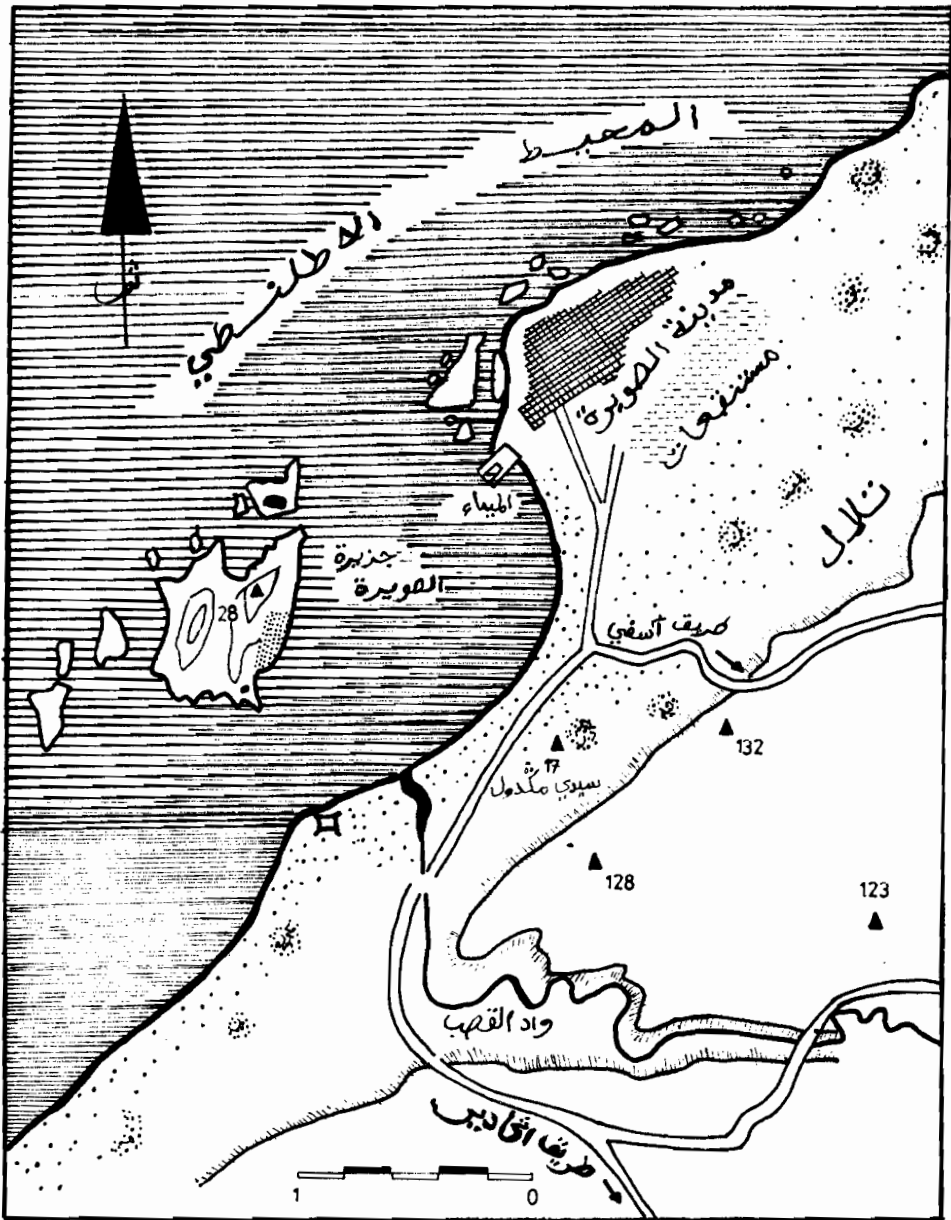
إن تعذر العثور لحد الآن على آثار فينيقية ما بين هاتين النقطتين رغم الاستكشافات التي قام بها كل من «بيير سانتاس» - P. Cintas, Contribution à l'étude de l'expansion Carthaginoise au Maroc, op.cit.

- A. Luquet, Prospection punique de la côte atlantique du Maroc, *Hespéris*, T. XL III, 1956, pp. 117-132.

يعوز إلى نذرة التنقيبات عن الآثار الفينيقية بالمغرب بعد الاستقلال، مع العلم أن العديد من النصوص التاريخية القديمة تشير إلى وجود العديد من المحطات الفينيقية على الساحل الأطلسي المغربي — فمئذ الستينات لم تقم مصلحة الآثار بالمغرب بالاهتمام بأي مركز فينيقي حتى عامي 1988 و 1989، حيث خصصت وزارة الثقافة ندوتين عن مدينة ليكسوس ذات الأصول الفينيقية، الأولى كانت وطنية والثانية دولية.



1 - ناحية الصورة خلال الزمن الجيولوجي الرابع



2 — مدينة الصويرة ونواحيها